Turath

Turath
ISSN : 2830-9863 ; EISSN : 2992-0698
Volume 1 Issue 1 / June 2023 pp. 114-116

تراث

Book Review of Mbarka Belahcene, Death and the Making of the Symbolic: Rituals and Social Imagination. Al-Watan Al-Youm Publications, 2022 - 176 pages

Compte rendu de l'ouvrage de Mbarka Belahcene, La mort et la fabrication du symbolique : Rituels et imaginaire social. Publications Al-Watan Al-Youm, 2022 - 176 pages.

عرض كتاب مباركة بلحسن،الموت وصناعة الرمزي: طقوس ومخيال اجتماعي. منشورات الوطن اليوم 2022- 176 صفحة

Mohamed HIRRECHE BAGHDAD
Centre of Research in Social and Cultural Anthropology (CRASC), Algeria
m.hirreche@crasc.dz

Published: 30/06/2023

Citation:
HIRRECHE BAGHDAD, M. (2023). Book Review of Mbarka Belahcene, Death and the Making of the Symbolic: Rituals and Social Imagination. Al-Watan Al-Youm Publications, 2022 - 176 pages. *Turath*, *1*(1), 114–116.

© 2023 **Turath** / Published by the Centre of Research in Social and Cultural Anthropology (CRASC), Algeria.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND 4.0 license.

ما أهمية دراسة الموت اليوم وما هي الانعكاسات المعرفية لمثل هذه الدراسة على الحقول الأخرى؟ يظهر أن الأدبيات التي وثقت للموضوع وصفا وتأريخا مرتبطة في العموم بأدب الرثاء وبكتب الوفيات (وفيات الأعيان، لابن خلكان مثلا) أما بالنسبة للدراسات المخصصة لهذا الموضوع، فقد كانت مندرجة إلى حد كبير في الدراسات الأركيولوجية التي تهتم كثيرا بالحفريات التي لها علاقة بالفضاءات الجنائزية وبقراءة ما كتب على شواهد القبور. ومع الوقت صار الموضوع متناولا أكثر في الأبحاث السوسيولوجية، الأنثرويولوجية، الفلسفية والأدبية...إلخ.

في هذا المؤلَّف الفردي نجد حصيلة بحث طويل حول الممارسات الاجتماعية ذات الصلة بتيمة الموت في سياق محلي (المحلي والمحنة)، حيث تم تحديد صورة الموت والتمثلات الخاصة به في التراث الحسّاني من خلال المدونة الشعرية. ومن أجل مقاربة هذا الموضوع أكثر، قامت المؤلّفة بمساءلة الموضوع من منظور أنثروبولوجي وسوسيولوجي. وعليه، فإن مقاربتها تجمع بين العمل الميداني القائم على الملاحظة والاستجواب (المقابلة) وبين البحث النظري في المدونات الشعرية الشفهية والمكتوبة، وأجرت قراءات عديدة في أمّهات الكتب التي تناولت هذا الموضوع وخاصة ما ارتبط منها بالسياق الغربي .وقد تركت الباحثة مجالا واسعا للمقارنة بين مدينة وهران (الشمال الغربي) وبين تندوف (الجنوب الغربي) حتى تمكّنت من

التطرق إلى المراحل والمحطات والمفاهيم الأساسية المرتبطة بالموت عبر المخيال الاجتماعي والممارسات ذات الطابع الاجتماعي والثقافي، خاصة في البيئة الحسّانية وثقافة البيظان في منطقة تندوف وموريتانيا مع الانفتاح المستمر على ثقافات العالم الإفريقية والأوروبية .

ظهر الجانب المفاهيمي في بداية الكتاب من خلال ضبط المفاهيم التي أطلقت عليها تسمية "حول المائتية ومفردات الموت" وتحديد أنواع الموت: الفيزيقي، الاجتماعي والرمزي. ولا شك أن مثل هذه المواضيع مرتبطة ارتباطا شديدا بالمعتقدات والطقوس التي خصّصت له الباحثة مجالا واسعا من التحليل والإضاءة. في هذا الإطار، تمت الإشارة إلى أن بعض القبائل الحسّانية تعتقد بقدرة الأرواح الشريرة التي يطلقون عليها "أهل الخلا" على إلحاق الأذى البشر. وضمن هذه الاعتقادات، نجد أن الخوف من الجثّة في هذه البيئة ليس له علاقة بالخوف من حدث الموت، بل بسبب الاعتقاد بأن روح المتوفى قد تبقى بعد الموت بالقرب من جسده لفترة زمنية. وبما أن حدث الموت مأساوي ومُخيف، فإن أهل المنطقة (الحسّانيون) يتحاشون في حياتهم اليومية استعمال المفردات الدالة عليه. "إن صورة الموت في المجتمع الصحراوي تظهر بأنها العلة والمرض والمصيبة التي إذا حلّت بمكان فلن تتركه بسلام، خاصة بالنسبة لفئة الشباب، لكنها في الوقت نفسه نهاية طبيعية" (ص. 156) وتستنتج الباحثة أيضا "أن العديد من الممارسات والمعتقدات التي تظهر للبعض بأنها غريبة كالخوف والرعب بشكل هستيري من الجثة[...]قد يرجع إمّا إلى أخطاء سابقة في تقدير حالة الوفاة[...] أو إلى البيئة وكثافة السّكان". (ص. 157)

وبالنسبة للفترات الزمنية السابقة، فقد كانت الوفيات قليلة نظرا لانخفاض عدد السّكان وتباعدهم الزماني والمكاني، فالقبائل كانت عبارة عن مجموعات صغيرة (كثافة سكانية قليلة) وكان الناس يُعمّرون أكثر، ما يجعل حدث الموت يولّد الهلع لدى حصوله. ونظرا لذلك، فإن المجتمع الحسّاني عاش العشرية السوداء بمشاعر حزن وخوف مضاعفة بالمقارنة مع البيئات والجغرافيات الأخرى. ولكن بما أن الموت متوقع وحتمي، فإن الحسّانيين يتعاملون معه بعقلانية (الرصانة والحكمة)، الشيء الذي يؤكّد تغليب دوافع الحياة على دوافع الموت. كما أن وقوعه، باعتباره حدثا اجتماعيا، يؤجّل كل المناسبات الأخرى، حتى يوفّ حقه من الطقوس والمشاعر المرافقة لفترة الحداد. يمنح الموت الفاعلين فرصة لتجديد روابطهم الاجتماعية، حيث يرافق الأهلُ الشخصَ المحتضر، ويضاعفون درجة اليقظة لتسهيل لحظاته الأخيرة، وذلك بتقطير العسل في فم المحتضر من أجل معرفة وضعيته (مؤشرات الحياة). وهنا قد تتحسن حالته عند تذوقه العسل أو قد يسرّع ذلك مفارقة روحه لجسده. وعليه، فإن الموت في الوسط العائلي غير الموت في المستشفى، فقد لا يحضى المتوفى في هذا الوسط (المستشفى) بالشروط نفسها وظروف الرعاية والمرافقة المعتبرة. والعبارة الحسّانية التي ذكرتها الباحثة تعبّر بوضوح على ذلك: "يا سعد فلان شاف وتوادع مع أحبابو وأهلو كاملين سابق ما ينقطع."

ونظرا لتأثير المعتقدات الإسلامية السائدة في المجتمع، فإنه يُنظر إلى الألم والمعاناة التي تصاحب الاحتضار على أنها تسهم في تخفيف الذنوب. وتعتبر الطقوس المرافقة للمآتم والأحزان (الحداد) واجبا مقدسا، حيث أن عدم الالتزام بها يُدخل عائلة المتوفى في عزلة اجتماعية ويحرمهم من سبل التضامن والمواساة. ولا تتردد الباحثة في قياس ذلك على مناطق أخرى من الجزائر، حيث تشير إلى أنه خلال جائحة كوفيد 19، الكثير من العائلات الوهرانية كانت تلجأ إلى "طرق ملتوية" لاسترجاع جثث موتاهم الذين توفوا في المستشفيات إثر إصابتهم بالفيروس، وذلك حتى يتمكنوا من "إقامة طقوس جنازة كاملة."

في الأخير، يمكن القول، إن هذه التيمة كانت مدخلا عرّفنا أولا على المجتمع الحسّاني وثانيا على المجتمع الجزائري وثالثا على المجتمعات الإفريقية. ويمكن الاستنتاج أن كثيرا من المعتقدات والممارسات التي ذكرتها المؤلّفة نجدها في ثقافات أخرى،

Turath
Volume 1 Issue 1 / June 2023

الشيء الذي يؤكّد أن العقل البشري يشتغل بالطريقة ذاتها عندما يتعلق الأمر بالفقدان، حيث أنه يجنّد آليات حماية تضمن استمرارية النوع البشري وتُجنِّب الأفراد الاستمرار في حزن مبالغ فيه، إن لم نقل حزنا قاتلا .

و "إن كان مجتمعنا الذي يظهر بأنه حداثي ومنفتح على العالم لا يزال يطغى عليه الطابع المحافظ على ممارسات أفراده" (ص 154)، فإن هذا الأمر يصدق على كثير من المجتمعات الأخرى التي رغم تجنيدها لترسانة من المفاهيم والمؤسسات والإجراءات المخصصة للموت، إلا أن الكثير من المعتقدات الدينية وغير الدينية تلازم طقوس الدفن والحداد عندها.